السياق ومغايرة الترتيب في القصص القرآني "دراسة بلاغية"

يسرا محمد عبد اللطيف محمد (*)

الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم منحه العقل والبيان، والصلاة والسلام على نبينا محمد – ﷺ – الذي بعثه ربه للعالمين هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، وجعله خاتم الأنبياء والمرسلين، وأيده بمعجزة باقية أبد الدهر، ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزمر: ٢٨]، وجعل العقل والبيان شاهدي عدل من كل إنسان منصف على أنه فوق قدرات البشر، ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ [هود: ١]

وبعد،،،

يتصف القصص القرآني بسمو غاياته، وعلو مراميه، وشمول مقاصده التي تسلك مسالك الإنذار والحكمة والاعتبار، ومما يسترعي انتباه القارئ المتأمل في هذا الصدد هو ظاهرة التنوع، ومغايرة الترتيب في سرد القصص القرآني؛ تلك الظاهرة التي يقتضي تفسيرها تأملًا واعيًا في السياق للكشف عما يكمن فيها من مرامي، وأسرار بيانية.

أسباب اختيار الموضوع:

أولًا: عدم الوقوف – حسب علمي- على دراسة تُغطي جوانب هذا الموضوع من هذه الزاوية التي سوف يركز البحث عليها .

ثانيًا: الرغبة في محاولة استجلاء بعض الأسرار البلاغية الكامنة وراء ظاهرة التنوع الأسلوبي في سرد القصص القرآني.

ثالثًا: الرغبة في توضيح خصوصية المسلك السياقي في القصص القرآني.

رابعًا: خدمة القرآن الكريم، ورِفْدُ المكتبة العربية بإضاءة بحثية آمل أن تكون جديدة هادفة.

(*) هذا البحث مستل من رسالة الدكتوراه الخاصة بالباحثة، وهي بعنوان: [السياق وتنوع المتن الحكائي في تكرار القصة القرآنية "قصص الأنبياء مع أقوامهم أنموذجًا"]، وتحت إشراف أ.د. حسن طبل- كلية دار العلوم - جامعة القاهرة & أ.د. بهاء محمد محمد عثمان - كلية الآداب - جامعة سوهاج.

أهداف الدراسة:

محاولة الكشف عن المقتضيات السياقية والأغراض الفنية التي اقتضت التنوع في بنية السرد القصصي القرآني.

رصد بعض مظاهر مغايرة الترتيب في القصص القرآني، واستجلاء السر الكامن وراء هذه المغايرة.

الدراسات السابقة:

لم أقف في حدود علمي على دراسة تحمل ذات العنوان، أو تناولت الموضوع من الناحية التي ينحو البحث إليها.

منهج الدراسة:

نشأت فكرة هذا البحث في إطار المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم برصد ظواهر التنوع في بناء القصة القرآنية عند تكرارها، مع الاستعانة بتأمل خصوصية السياق بشقيه المقالي والمقامي، وأدوات التحليل الفني والإحصاء، والكشف عن أثرها في هذا التنوع.

وقبل الشروع في هذا البحث يحسن إلقاء الضوء على مصطلحات العنوان كي تتضح صورته:

السياق:

تقول المعاجم اللغوية في مادة [س. و. ق]: "انساقت الإبل: تتابعت، ومساوقتها؛ أي متابعتها السير، كأن بعضها يسوق بعضًا، "تساوق الشيئان: تسايرا أو تقارنا، ساوقه: باراه أيهما أشد وأسرع، وساق معه، وتابعه وسايره وجاراه"(١)

وبتأمل الدلالات المعجمية التي تدور حولها مادة لفظة السياق يتبين لنا أنها تدور في عمومها حول معنيين هما:

١-التوالي أو التتابع.

٢-الموازاة أو التقارن.

وهذان المعنيان يمثلان الركيزة الأساسية التي ينطلق منها المفهوم الاصطلاحي للسياق، ولا يوجد نص صريح عند القدماء يتضمن تعريفًا للسياق، ولكن تتبع ورود المصطلح في الموروث البلاغي يفضي إلى القول بأنهم كانوا على وعي عميق بمفهوم السياق بشقيه المقالي والمقامي، وإدراكهم لأهميته في فهم المعاني.

(١) تنظر: مادة [س. و. ق] في لسان العرب، لابن منظور، دار الحديث – القاهرة، طبعة مراجعة ومصححة بمعرفة نخبة من السادة الأساتذة المختصين، ٢٠٠٣م، وتنظر المادة نفسها في أساس البلاغة ، للزمخشري، قراءة وضبط وشرح د. محمد نبيل طرفي، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م، وتنظر أيضًا في: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، دار الدعوة.

ولا نهدف في هذا الصدد إلى تتبع ورود المصطلح في موروثنا البلاغي، وبحسبنا الإشارة إلى ما يجلي وعيهم به، كمقولتهم الذائعة: "لكل مقام مقال"، وأن البلاغة عندهم تعني "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"١، وتأكيدهم على أن حسن تلاؤم الكلمة مع أخواتها، ودقة تعالق الجملة مع جاراتها شرط وركيزة أساسية في الكلام البليغ.

يقول "الجاحظ " في بيان مطابقة الكلام لأحوال المخاطبين، وللأغراض، والمعاني المرجوة في سياقاتها: "وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميًا وساقطًا سوقيًا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبًا وحشيًا، إلا أن يكون المتكلم بدويًا أعرابيًا؛ فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي، وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم طبقات، فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح، والحسن، والقبيح، والسمج... وقد أصاب القوم في عامة ما وصفوا، إلا أني أزعم أن سخيف الألفاظ مُشَاكل للسخيف من المعاني، وقد يُحتاج إلى السخيف في بعض المواضع..."(٢)

ويقول السكاكي في هذا الصدد : " ولا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم... وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار... وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر، ثم إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبتها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول، وانحطاطه في ذلك، بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه مقتضى الحال؛ فإذا كان مقتضى الحال إطلاق الحكم، فحسن الكلام تجريده عن مؤكدات الحكم، وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك، فحسن الكلام تحليه بشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفًا وقوةً، وإذا كان مقتضى الحال طى ذكر المسند إليه فحسن الكلام تركه... وكذا إن كان المقتضى عند انتظام الجملة مع أخرى فصلها أو وصلها، والإيجاز معها أو الإطناب... فحسن الكلام تأليفه مطابقًا لذلك"(٣).

فعبارات الجاحظ والسكاكي هذه، تبرهن على أن البلاغيين القدماء كانوا على وعي بمفهوم السياق بشقيه(المقالي - المقامي)، "ومن يتأمل عبارة السكاكي يلحظ

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، الطبعة الثالثة، (د. ت)، الجزء الأول، ص ٤٤، وينظر: المطول: لسعد الدين التفتازاني، تحقيق: أ.د/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ص ١٦٨.

(٢) البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي – القاهرة، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨ م، الجزء الاول، ص ١٤٤- ١٤٥.

(٣) مفتاح العلوم، للسكاكي، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ص١٦٨.

أن الحال لم تعد وسيلة من وسائل كشف المعنى، بل أصبحت قوّة متسلّطة تُفرض على المعنى فتحتويه، وتشكله تشكيلًا آليًّا، وهذا يمثل منحنى خطيرًا في تصوُّر المطابقة في تراثنا البلاغي، فالأساليب الفنيّة ليست رصدًا مباشرًا للأحوال والمقامات الخارجية، بل هي تصويرٌ لرؤية الأديب الخاصة لها، وتجسيد لانفعاله المتميّز بها، وموقفه المتفرّد منها، ولولا ذلك لانحدرت تلك الأساليب إلى هوّة التقرير المباشر الذي يسجل الواقع تسجيلًا آليًّا لا فنية فيه"(١).

نستطيع القول في ضوء ما تقدم أن البلاغة العربية قد توصلت إلى فكرة السياق، وأدركت طبيعة دوره، وأثره الفاعل في الكشف عن المعاني، واستكناه المضامين في النص اللُّغوي.

وقد أدرك المفسرون، وأصحاب كتب المتشابه أهمية السياق ودوره في فهم الآيات واستنباط معانيها – كما يقرر - أستاذنا الدكتور حسن طبل قائلًا: "والأمر اللافت للانتباه في هذا الصدد، هو أن هؤلاء المفسرين على اختلاف انتماءاتهم وتعدد مذاهبهم، قد كانوا على وعي بخصوصية السياق في النص القرآني، إذ إن مداه يتسع – مقاليًا ومقاميًا – مع هذا البيان المعجز اتساعًا يوجب على المفسر أو الدارس المتأمل غير قليل من التأني، وتوسيع أفق الرؤية، وذلك في ضوء ما هو مقرر لديهم من أن هذا البيان الخالد على طوله وتعدد سوره، وتنوع أغراضه، هو نص لغوي متآزر العناصر، متلاحم الأجزاء، وفي ضوء ما هو متقرر لديهم – كذلك – من أن سبب النزول، أو الملابسات المقامية (الزمانية والمكانية) له لا تكفي في حد ذاتها لتفسير النص أو استكناه أسراره، إذ لم ينزل البيان القرآني لزمان بعينه، أو لمواجهة موقف بذاته، ومن ثمّ فإن العبرة فيه – كما قيل – هي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب."(٢).

وقد أشار الزمخشري إلى ضرورة الاستئناس بقرائن السياق، مقالية كانت أو مقامية، فمن ذلك-على سبيل المثال- قوله تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ [النساء: ١٧٢] فهو يقرر أن الملائكة المقربين في الآية هم أعلى قدرًا من المسيح، ثم يدلل على ذلك قائلًا: "فإن قلت: من أين دل قوله: "ولا الملائكة المقربون" على أن المعنى ولا من فوقه؟ قلت من حيث إن علم المعاني لا يقتضي غير ذلك، وذلك أن الكلام إنما سيق لرد مذهب

(١) الشاهد الشعري في مبحثي الفصاحة والبلاغة، أ.د/ عيد محمد شبايك، بحث منشور على شبكة الألوكة، (٣/٣)، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.

(٢) نظرية السياق بين الموروث العربي واللسانيات الحديثة، أ.د/ حسن طبل، بحث منشور في مجلة (فكر وإبداع)، مصر، العدد ٥٣، يونيو ٢٠٠٩م، ص ٦٩: ٧٤.

النصارى وغلوهم في رفع المسيح عن منزلة العبودية، فوجب أن يقال لهم: لن يرتفع المسيح عن العبودية، ولا من هو أرفع منه درجة، كأنه قيل: لن يستنكف الملائكة المقربون من العبودية فكيف بالمسيح؟! ويدل عليه دلالة ظاهرة بينة تأخير الملائكة، وتخصيص المقربين؛ لكونهم أرفع الملائكة درجة وأعلاهم منزلة"(١)

وبتأمل عبارات الزمخشري في هذا الصدد يتبين لنا أنه قد اتكأ في تفسيره للآية الكريمة على قرينتي (المقام والمقال) فالآية واردة في سياق دحض شبهات النصارى وادعاءاتهم الباطلة بألوهية المسيح، وهذا يمثل (المقام)، أما تأخير ذكر الملائكة المقربين فيمثل (المقال)، ومن هنا تتضح أهمية السياق بشقيه في استكناه دلالة الآية الكريمة لدى الزمخشري.

كما اهتم المفسرون بمعرفة أسباب النزول التي تعد طريقًا لفهم المعاني المقصودة من الآيات، يقول السيوطي: " ومنها: الوقوف على المعنى وإزالة الإشكال، قال الواحدي: لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها. وقال ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن وقال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب."(٢)

ويوضح" ابن القيم" أهمية السياق في تجلية المعنى المقصود؛ حيث يقول: "السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾[الدخان: ٤٩] كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير"(٣).

(١) الكشاف: للزمخشري، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧ه الجزء الأول، ص ٥٩٦، وينظر للمزيد من التوضيح: البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م، الجزء الثاني، ص ١٧٢، وينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبدالعظيم الزرقاني، راجعه وعلق عليه: محمد قطب، و يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية – بيروت، طبعة ٢٠٠١م، الجزء الثاني، ص ٥٢٨، وينظر: النبأ العظيم" نظرات جديدة في القرآن"، د.محمد عبدالله دراز، اعتنى به وخرج أحاديثه: عبدالحميد الدخاخني، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية ١٤٢١هـ -٢٠٠٠م، ص ١٥٥.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث- القاهرة، (د. ط)، (د. ت)، الجزء الأول، ص٨٢

(٣) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، ضبط النص وخرَّج آياته أحمد عبد السلام، ، دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٤م، الجزء الرابع، ص٢٢٢

القصة القرآنية:

شغلت القصة القرآنية حيزًا ملحوظًا في النظم القرآني المعجز، غير أنها اتسمت في هذا النظم بسمات تميزها عن غيرها من صور القص، ومن أبرز هذه السمات:

١-الصدق والواقعية ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٢]، فليس في القصص القرآني ما يعتمد على الخيال أو الأساطير التي تستغرق كثيرًا من ألوان القص عند البشر.

٢-التركيز على مواطن الاتعاظ والعبرة ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١١]

فالبيان القرآني كما يقرر الدكتور تمام حسان : "ليس كتاب قصص، وإنما هو كتاب دعوة وتشريع، فإذا جاء بالقصة فإنما يأتي بها في إطار الدعوة إلى الإيمان، وللإشارة إلى وحدة الدعوة على رغم تعدد الأنبياء، واختلاف الأزمنة والأمكنة والأقوام...، وهكذا ينبغي أن يكون النظر إلى القصة القرآنية مختلفًا عن النظر إلى القصة الأدبية؛ فهي ليست للمتعة، ولا للتذوق الأدبي المجرد، ولا لفرض منهج نقدي عليها أيًّا كان هذا المنهج؛ لأن القصة القرآنية فريدة في طابعها وغايتها وتكوينها"(١)

٣-القصص القرآنية التي دارت حول الأنبياء - عليهم صلوات الله وسلامه – تركزت غايتها الأساسية حول تثبيت فؤاد النبي – ﷺ- ليواصل المسير في تبليغ الرسالة مثل إخوانه من الأنبياء والمرسلين – عليهم أتم الصلوات والتسليم-، فهي "تطمئن صاحب الرسالة وتواسيه في شدائده؛ إذ يرى أنه ختام رائع لأناس حملوا أمانة الدعوة، ولاقوا صعاب الرسالة، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله من عنت الضالين وبغي الكافرين"(٢)

وفي هذا البحث نسلط الضوء على التقديم والتأخير في الترتيب الزمني للقصص، ونحاول تجلية الملابسات السياقية التي أدت لذلك، ويتعلق الترتيب

(١) البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، د/ تمام حسان، طبعة خاصة تصدرها عالم الكتب في إطار مشروع مكتبة الأسرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٣م، الجزء الثاني، ص ٣٥٣.

(٢) البيان القرآني: د/ محمد رجب البيومي، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الثانية، ١٤٢٦ه – ٢٠٠٥م، ص ١٥١.

الزمني للخطاب السردي بنظام تتابع الأحداث في القصة(١)، "والصلة بين زمن القصة وزمن الخطاب أو الحكاية الأساسية للنص السردي؛ لأن منها تتولد المفارقات الزمنية"(٢)، وقد اقتصرنا على سور ثلاث تتجلى فيها ظاهرة التنوع في الترتيب عند سرد قصص الأنبياء مع أقوامهم، وهي على النحو الآتي:

أولًا: مراعاة الترتيب الزمني (سورة الأعراف أنموذجًا):

تعدُّ سورة الأعراف من النماذج التي اتخذت من الترتيب الزمني طريقًا لسرد قصص الأنبياء مع أقوامهم، فبعد سرد قصة آدم – عليه السلام – شرع السياق في سرد قصص الأنبياء مع أقوامهم حسب ترتيبهم الزمني، فجاءت هذه القصص على النحو الآتي:

- قصة نوح –عليه السلام.
- قصة هود –عليه السلام-.
- قصة صالح –عليه السلام-.
- قصة لوط –عليه السلام-.
- قصة شعيب –عليه السلام-.
- قصة موسى –عليه السلام-.

ويمكن تلمس سبب المحافظة على الترتيب الزمني في هذه السورة الكريمة بملاحظة ما يأتي:

أ-تعد سورة الأعراف أول سورة في نسق المصحف تحوي هذا العدد من قصص الأنبياء.

ب-جاء في مطلع هذه السورة الكريمة قوله تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٧]، فالعالم بالقصص يكون عالمًا أيضًا بترتيب وقوعها، فكان الأنسب لهذا السياق أن تأتي فيه القصص مرتبة ترتيبًا زمنيًا.

ج-قبل سرد أول القصص "قصة آدم" جاء التذكير بتسلسل أطوار الخلق في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأعراف: ١١]، فهذه المراحل المعطوفة في الآية

(١) ينظر السرديات ضمن كتاب نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير (جينيت، واين بوث، بوريس أوسبنسكي، وازف، رؤسوم غيون، كريستيان أنجلي، جان إيرمان)، ترجمة: ناجي مصطفى، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي – الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٨٩، ص ١٢٣.

(٢) ينظر خطاب الحكاية – بحث في المنهج: جيرار جينيت، ترجمة: محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي، المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة، الطبعة الثانية، ص ٤٧.

بأداة الترتيب "ثمّ" والتي تفيد أن اللاحق لا يأتي إلا بعد سابقه يناسبها سرد القصص التالية لها على نفس الوتيرة، لا تسبق قصة أخرى من حيث الزمن، والله أعلم.

د-بتأمل القصص الواردة في هذه السورة يتبين لنا بوضوح أن ترتيبها تاريخيًا يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالغرض من سردها على هذا النحو؛ حيث إن كل نبي من الأنبياء بعد نوح – عليه السلام – كان يذكر قومه بما حدث مع النبي السابق له، فهود – عليه السلام – كان يذكر قومه بقوم نوح – عليه السلام – قال تعالى: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وصالح – عليه السلام – يذكر قومه بأنهم خلفاء لسابقيهم، قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٤].

ولوط – عليه السلام – كان يذكر قومه بأن الأمم السابقة لم تقترف ما يقترفون من فاحشة، قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٠ – ٨٢].

ه-أوثر عطف القصة الأخيرة (قصة موسى عليه السلام) بأداة العطف المفيدة للترتيب والتراخي "ثم" في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٠٣]

ولعل هذه الأسباب – والله أعلم – هي السر في سرد قصص هذه السورة سردًا روعي فيه الترتيب الزمني.

ثانيًا: الترتيب المعكوس (سورة الذاريات أنموذجًا):

حفلت سورة الذاريات بعدة قصص من قصص الأنبياء مع أقوامهم، وهذه القصص جاءت على النحو الآتي:

قصة إبراهيم –عليه السلام- والإشارة لقصة لوط من خلال حوار الملائكة معه وإخباره بالعذاب الواقع بقوم لوط –عليه السلام-.

قصة موسي –عليه السلام-.
قصة هود –عليه السلام-.
قصة صالح –عليه السلام-.
قصة نوح عليه السلام-.

وبتأمل هذه القصص الواردة في سياق السورة الكريمة نلاحظ أنها رتبت ترتيبًا معكوسًا وكانت بداية القصص قصة إبراهيم – عليه السلام – ونهايته قصة نوح – عليه السلام - فما السر الكامن وراء مجيئها على هذا الترتيب؟

إن الإجابة عن هذا التساؤل تقتضينا التوقف مليًا كي نتأمل قرائن السياق بشقيه المقالي والمقامي؛ كي نستطيع في ضوء تأملها الوصول إلى تفسير مقبول لإيثار هذا الترتيب في تلك السورة فنحن نلاحظ:

١-هذه السورة هي السورة السابعة والستون في الترتيب النزولي؛ فلقد نزلت بعد سورة الأحقاف، ويكاد يكون من المسلم به أن لهذا الترتيب النزولي علاقته الوثيقه بخصوصية الملابسات المقامية التي تواكب نزول الآيات أو السور على المنزل عليه – ﷺ -، وهنا نود ملاحظة أن سورة الأحقاف من أواخر السور التي نزلت في العهد المكي، مما يشي بقربها من ملابسات فترة حصار قريش شعب أبي طالب؛ حيث فرضت قريش حصارًا شديدًا على بني عبد المطلب، وكانت هذه الفترة من أشد الفترات التي قضاها النبي – ﷺ – وأصحابه؛ لأن قريشًا حاصرتهم ومنعت عنهم الطعام حتى يروى أنهم أكلوا أوراق الشجر(١).

وإذا كانت تلك هي الملابسات المقامية التي واكبت نزول سورة "الأحقاف"، وتلك السورة التي نحن بصددها "الذاريات" وبالتأمل في سياق هذه السورة الكريمة يتجلى خلالها التركيز على قضية الرزق وكأن في هذا التركيز ردًا – على هؤلاء الكفار الذين سول لهم غرورهم وطغيانهم أن الرزق بأيديهم يمنحونه من يشاءون.

من هنا ركزت سورة الذاريات في أكثر من موطن على تأكيد نسبة الرزق إلى الله، وبيان مصادره التي هي بيده عز وجل وحده، قال سبحانه: ﴿ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٣ – ٦]

وقوله سبحانه: ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٢ – ٢٣]

(١) قال ابن عباس – رضي الله عنه-: "فحُصِرنا في الشعبِ ثلاث سنين، وقطعوا عنا الميرة (الطعام) حتى أن الرجل منا ليخرج بالنفقة فما يُبَايع حتى يرجع، حتى هلك منا مَن هلك" ينظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: محمد بن يوسف الصالحي، دار الكتاب المصري – القاهرة، دار الكتاب اللبناني – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠ه – ١٩٩٠م، الجزء الثاني، ص ٥٠٣.

ولعلنا في ضوء هذه النقطة – نستطيع القول بأنه في ظل هذا التركيز على قضية الرزق في هذه السورة الكريمة كان من الملائم البدء بقصة إبراهيم التي دارت في صدرها حول محور الطعام والرزق، قال تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٤ – ٢٦]

٢-لقد أقسم عز وجل في صدر السورة على صدق وعده بأمرين هما:

الأول: الذاريات في قوله تعالى: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ﴿١﴾ ﴾ [الذاريات: ١]

الثاني: السماء في قوله سبحانه: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ﴿٨﴾ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ﴿٩﴾ ﴾ [الذاريات: ٧ – ٩]

وكل من هذين الأمرين يحتمل أن يكون إحدى النعم، كما يحتمل أن يكون إحدى النقم؛ حيث تأتي الرياح فتحمل السحاب الثقال فتسوقه إلى الأرض الجرز، وتحمل السفن الموقرة، وتجري بها إلى المنافع، وربما تعصف فتذرو الرمال، وينقلب حاصبها فتمطر الحجارة، وربما تنقلب صرصرًا فتأتي بالبرد والصواعق، وربما تصير طوفانًا...، وكذلك الأمر في السحب ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ﴿٧﴾ ﴾ [الذاريات: ٧] قد تأتي بالمطر النافع للبلاد والعباد كما تأتي بالوابل المثير للطوفان(١).

ولعل المعنى المعجمي للفظة "أفك" يؤكد ما ذهبنا إليه؛ حيث تقول المعاجم اللغوية في مادة [أ. ف. ك]: " الْهَمْزَةُ وَالْفَاءُ وَالْكَافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى قَلْبِ الشَّيْءِ وَصَرْفِهِ عَنْ جِهَتِهِ، والمعنى المحوري تغير حال الشيء جملةً من وجه إلى وجه"(٢).

ولما كان لكل من هذين الأمرين المقسم بهما في صدر السورة جهة رحمة، وجهة نقمة، كان من الملائم فيما نرى – والله أعلم – في سرد قصص السورة الكريمة بالقصة الجامعة- لكلتا الجهتين، نعني قصة إبراهيم – عليه السلام – التي جمعت جانب الرحمة متمثلة في تبشير الملائكة لزوجه – عليه السلام – بغلام

(١) ينظر: تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: الإمام عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية - الهند، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ص ١٢٨-١٢٩.

(٢) تنظر مادة [أ. ف. ك] في مقاييس اللغة، والقاموس المحيط، والمفردات، والمعجم الاشتقاقي.

عليم، قال تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٨ – ٣٠]

وجاءت النقمة المتمثلة في قصة لوط – عليه السلام – التي أدمجت في تلك القصة؛ كي تخبر عما نزل بهم من تدمير، قال تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الذاريات: ٣٢ – ٣٤].

٣-قبل سرد القصص جاء قوله عز وجل: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٠ – ٢٢]

ونحن مع ما ذهب إليه "الفراهي" من أن في نظم هاتين الجملتين اكتفاء بما ذكر في إحداهما عن ذكره في الأخرى "فذكر الآيات مع الأرض أغنى عن ذكرها مع السماء وهكذا ذكر الرزق والموعود مع السماء أغنى عن ذكرها مع الأرض، وقد جاء في غير هذا الموضع التصريح بكون الآيات في السماء وهكذا جاء التصريح كثيرًا بكون الرزق في الأرض"(١).

ونود أن نضيف إلى ما لاحظه "الفراهي" الملاحظات الآتية:

أ-أن آية الأرض (السابقة) قد خصصت بالموقنين ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٠].

ب-أن آية السماء (اللاحقة) قد جاءت عامة دون تخصيص ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٢].

ج-أن القصص ذكر بعضها باسم النبي المرسل "إبراهيم – موسى"، وبعضها باسم القوم المرسل إليهم (قوم لوط – عاد – ثمود – قوم نوح).

ولعلنا في ظل هذه الملحوظات نستطيع القول إن السياق قد آثر تقديم قصتي "إبراهيم"٢ ثم "موسى" – عليهما السلام -؛ لأن محور السرد هو أن لكل منهما حادثة وقعت على الأرض (استقبال الملائكة، واستقبال البشارة بالغلام – إرسال موسى وتأييده بسلطان مبين) أما سائر الأقوام فقد جاءت قصصهم متأخرة بعد ذلك؛ لأنها تشير إلى الآيات السماوية التي أهلكتهم (كالريح والصاعقة)، قال تعالى: ﴿

(١) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: ص ١٣٥.
(٢) قصة لوط مدمجة في قصة إبراهيم – عليه السلام – كما لاحظنا منذ قليل.

وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الذاريات: ٤١ - ٤٤]

أما لماذا جاءت قصة نوح – عليه السلام – في خواتيم القصص المسرودة؟

فلعل ذلك – والله أعلم – لما كان فيها من ظهور آيات الأرض والسماء ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القمر: ١١ – ١٢]، يقول الفراهي: "وأما قصة نوح – عليه السلام – فقد جعلها الله آية باقية لرحمته على جميع الأمم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحاقة ١١- ١٢]، وقد علمت ما كان فيها من ظهور آيات الأرض والسماء والريح والسحاب والفلك والماء، فكانت جامعة لآيات الله في الأنفس والآفاق، ومناسبة بما بدأ به السورة من القسم بالرياح ومما ختم به الدلائل من جوامع الكلم في آيات الأرض والنفس والسماء، فحسن موقعها بعد ذكر الآيات الخاصة تمثيلًا جامعًا لما قدم من الدلائل، وأيضًا كان قوم عاد وثمود خلائف بعد قوم نوح، فوصل بينهم"(١).

ولعل مما يدعم هذا التوجيه أن الآيات اللاحقة لها، قد تضمنت ذكر السماء والأرض والخلق، قال سبحانه: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الذاريات: ٤٧ – ٤٩].

وفي ختام هذا التطواف نود الإشارة إلى ختام هذه السورة الكريمة؛ حيث جاء ختامها بالحديث أيضًا عن قضية الرزق، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٨ – ٦٠]، وهذا تأكيد صريح لا يداخله ريب؛ فالله هو الرزاق، فالرزق بيده سبحانه، فالسياق يربط السورة كلها بوحدة موضوعية واحدة؛ حيث إن محورها – كما ذكرنا – يدور حول قضية الرزق التي شغلت أذهان الصحابة – رضوان الله عليهم – في هذه الفترة التي تزامنت ملابساتها

(١) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: ص ١٦١ – ١٦٢.

مع نزول هذه السورة الكريمة، فجاء القول الفصل فيها مؤكدًا ثلاث مرات في مطلعا ووسطها وخاتمتها، والله أعلم.

ثالثًا: مغايرة الترتيب بين الأنبياء (في سورتي النجم والأعلى أنموذجًا):

بتأمل سياقات القصص القرآني يتبين لنا أن هذه السياقات لم تلتزم نهجًا واحدًا في ترتيب أسماء الأنبياء – عليهم السلام -؛ فبينما نجد بعض هذه السياقات قد اتبع الترتيب التاريخي في ذكر أسماء الأنبياء نجد أن هناك سياقات أخرى قد عكست هذا الترتيب، وفي كلتا الحالتين نجد أن النهج المختار في الترتيب هو الأكثر ملاءمة لمقتضيات السياق وخصوصية قرائنه، ولا يتسع مقام هذا البحث لاستقصاء صور هذه المغايرة في البيان القرآني، وبحسبنا أن نتوقف إزاء مغايرة الترتيب بين إبراهيم وموسى – عليهما السلام – في سورتي الأعلى والنجم، وذلك في قوله تعالى في سورة الأعلى متبعًا الترتيب التاريخي: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى: ١٦ – ١٩].

وقوله عز وجل في سورة النجم متبعًا عكس هذا الترتيب: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النجم: ٣٣ – ٣٩].

وبالتأمل يتبين لنا أن كلًا من الترتيبين قد جاء موائمًا أشد المواءمة للسياق الذي ورد فيه، فنحن نلاحظ:

١-أن سياق سورة النجم قد ورد بصيغة الاستفهام عن تلقي النبأ من صحف موسى – عليه السلام -، ومن الطبيعي أن تلقي النبأ يكون من صحف موسى – عليه السلام – أولًا، إذ هو الأقرب زمانًا لهذا المتلقي، أما سياق سورة الأعلى فقد ورد بصيغة الإخبار عن وجود هذه الحقيقة - ألا تزر وازرة وزر أخرى – في صحف كل من النبيين – عليهما السلام – ومعلوم أن هذه الحقيقة قد وجدت أولًا في صحف إبراهيم–عليه السلام-؛ إذ هي الأسبق من صحف موسى – عليه السلام-.

٢-أن كلًا من السياقين قد سُبق بذكر الدنيا والآخرة، ولكن البيان القرآني قد راعى في الترتيب بينهما النهج نفسه الذي سلكه في ترتيب الرسولين – عليهما السلام -؛ حيث جاء في سورة الأعلى قوله سبحانه: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾

وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلى: ١٦ – ١٧]، وجاء في سورة النجم بعكس هذا الترتيب في قوله سبحانه: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النجم: ٢٥].

٣-لايفوتنا أن نلاحظ أن سياق سورة الأعلى برمته قد اتبع في ترتيب عناصره الترتيب السببي الذي يُقدم فيه المُقدم؛ أعني تقديم السبب المقدم بطبعه على نتيجته أو المسبب، فلنتأمل [خلق فسوى – قدر فهدى – أخرج المرعى – فجعله غثاء أحوى – سنقرئك فلا تنسى – وذكر اسم ربه فصلى] في قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأعلى: ١ – ١٥]، ففي مثل هذا السياق يتلاءم تقديم أبي الأنبياء إبراهيم على موسى – عليهما السلام -.

٤-كما لايفوتنا أن نلاحظ كذلك أن سياق سورة النجم لم يعكس الترتيب بين إبراهيم وموسى – عليهما السلام – فحسب، بل لقد عكسه كذلك في الإخبار عن مصائر أقوام عاد وثمود ونوح – على أنبيائهم السلام -، وذلك في قوله سبحانه مؤخرًا نوحًا على عاد وثمود: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النجم: ٥٠ – ٥٥]، والله أعلم.

الخاتمة:

لا يسعنا بعد هذا التطواف إلا أن نذكر أبرز النتائج التي توصل إليها هذا البحث، وذلك فيما يأتي:

- يتشكل المتن الحكائي في القصة القرآنية وفق مقتضيات السياق النصية والمقامية.
- لا يمكن تفسير السر في إيثار سورة من سور القرآن الكريم بمشهد بعينه إلا في ضوء السياق مقاليًا أو مقاميًا.
- يتنوع ترتيب ذكر الأنبياء، وترتيب أحداث قصصهم من سياق لآخر- على حسب مقتضيات السياق المقامية والمقالية.

أهم المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث- القاهرة، بدون طبعة، بدون تاريخ.
- أساس البلاغة ، للزمخشري، قراءة وضبط وشرح د. محمد نبيل طرفي، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ.
- بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، ضبط النص وخرَّج آياته أحمد عبد السلام، ، دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.
- البيان القرآني: د/ محمد رجب البيومي، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الثانية، ١٤٢٦ه – ٢٠٠٥م.
- البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، د/ تمام حسان، طبعة خاصة تصدرها عالم الكتب في إطار مشروع مكتبة الأسرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٣م.
- البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي – القاهرة، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨ م.
- تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: الإمام عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية - الهند، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- خطاب الحكاية – بحث في المنهج: جيرار جينيت، ترجمة: محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي، المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة، الطبعة الثانية.
- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: محمد بن يوسف الصالحي، دار الكتاب المصري – القاهرة، دار الكتاب اللبناني – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠ه – ١٩٩٠م.
- السرديات ضمن كتاب نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير (جينيت، واين بوث، بوريس أوسبنسكي، وازف، رؤسوم غيون، كريستيان أنجلي، جان إيرمان)، ترجمة: ناجي مصطفى، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي – الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.
- الشاهد الشعري في مبحثي الفصاحة والبلاغة، أ.د/ عيد محمد شبايك، بحث منشور على شبكة الألوكة، (٣/٣)، ١٤٣١ه – ٢٠١٠م.

- القاموس المحيط، للفيروزآبادى، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- الكشاف: للزمخشري، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧ه .
- لسان العرب، لابن منظور، دار الحديث – القاهرة، طبعة مراجعة، ومصححة بمعرفة نخبة من السادة الأساتذة المختصين، ٢٠٠٣م.
- المطول: لسعد الدين التفتازاني، تحقيق: أ.د/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
- المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، أ.د/ محمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب – القاهرة، بدون طبعة، ٢٠١٢م.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، دار الدعوة.
- مفتاح العلوم، للسكاكي، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ.
- مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر،بدون طبعة، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبدالعظيم الزرقاني، راجعه وعلق عليه: محمد قطب، و يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية – بيروت، طبعة ٢٠٠١م.
- النبأ العظيم" نظرات جديدة في القرآن"، د.محمد عبدالله دراز، اعتنى به وخرج أحاديثه: عبدالحميد الدخاخني، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية ١٤٢١هـ -٢٠٠٠م.
- نظرية السياق بين الموروث العربي واللسانيات الحديثة، أ.د/ حسن طبل، بحث منشور في مجلة (فكر وإبداع)، مصر، العدد ٥٣، يونيو ٢٠٠٩م.